الفصل الثالث

الوعى التاريخى والعالم الحديث

يتحدث علماء "التاريخ" فى الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية فى العصر الحديث، ويرجعون - بهذه الطفرة - إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما فتحت دور المحفوظات الأوروبية أبوابها لأهل العلم؛ فأخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس. وكانت هذه الثروة الضخمة حافزاً للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة "التاريخ"، ومن ثم حدث ما يسمى عادة بـ"الانفجار" الواسع المدى فى الدراسات التاريخية؛ حيث ساد فى الغرب الأوروبى تياران رئيسيان: الأول، تيار الواقعية الموضوعية Objective Empiricism الذى يقول أصحابه بأنه يمكن أن نكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت فى الماضى. الثانى، تيار النزعة "التأريخية" Historicism أى تيار القائلين بتوالد أحداث التاريخ بعضها عن بعض، بمعنى أن "التاريخ" هو عملية توالد مستمرة [59].

ويدخل فى نطاق هذين التيارين فريق التقريريين أو الإيجابيين من المؤرخين Positivist Historians أولئك الذين حسبوا أنهم يستطيعون أن يوجزوا "التاريخ" كله فى سلسلة من القوانين العامة. ويمكننا أن ندخل فى زمرة أولئك المؤرخين "ابن خلدون" الذى أوجز تاريخ العالم فى قانونه المشهور عن "دورة العمران". وعلى الرغم من أنه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى، فإننا يمكن أن نضعه على رأس هذه المدرسة الهامة من علماء "التاريخ".

وإذا أردنا أن نتتبع مسار الوعى التاريخى فى العالم الحديث، فيمكن

البدء بمفكرى عصر النهضة[60] الأوروبية ونظرتهم للتاريخ حيث عاد الناس إلى تقييم "التاريخ" بوصفه دراسة اجتماعية تستند إلى أسلوب علمى، وقد ترتب على النهضة نتائج هامة منها: (1) صبغ "التاريخ" بالصبغة الزمنية، وتحول تدوين شئون الدولة من رجال الدين إلى العلمانيين. (2) تغيرت الكتابة التاريخية كنتيجة طبيعية لإحياء الدراسات القديمة، واتجاه الإيطاليين بالذات إلى منابع هذه الحضارة القديمة؛ أى إلى اللاتينية واليونانية. (3) ظهور روح النقد والتمحيص والتحليل للمراجع والمصادر الأصلية، واستبعاد ما لا يثبت صحته منها [61].

وهكذا عاد إلى الظهور من جديد طلب المعرفة والبحث الحر، وكانت البداية مع "لورنزو ڤالا" Lorenzo Volia (1406 - 1457) عندما أثبت بكتابه المعروف بـ"منحة قسطنطين" Donation of Constantine بطلان الأسس التى قامت عليها سلطة البابوات الزمنية. وهذه المنحة كانت تعتبر مقدسة لأن البابوات كانوا يقولون إن الإمبراطور "قسطنطين الأكبر" وهب فيها أراضى إيطاليا للكرسى البابوى، بوصفها إرث الرسول "بطرس" أخذه عن السيد المسيح مباشرة. وقد أثبت " ڤالا " أن هذه الوثيقة زائفة، وأن رجال الكنيسة زيفوها ووضعوا عليها خاتم "قسطنطين؛ وأن السيد المسيح لم يمنح الحوارى "بطرس" شيئاً فى إيطاليا أو غيرها. وقد أحدث هذا الكشف زلزالاً عنيفاً فى أوساط العلم والسياسة والدين فى أوروبا آنذاك.

وقد حذا حذو " ڤالا" عدد كبير من مؤرخى عصر النهضة فى إيطاليا نذكر منهم على سبيل المثال: "نيكولا ماكيافللى"[62] (1469 - 1527) فقد كتب عن "تاريخ" فلورنسا [63] الذى يعتبره النقاد من آيات علم التاريخ الخالدة، حيث جاءت رواتيه لهذا التاريخ بصورة صريحة وبأسلوب رصين وبسمو فى التفكير لا نجد له مثيل إلا فى "المقال عن التاريخ العالمى"

لـ"بوسويه" Bossuet (1627 - 1704). وفى كتاب "الأمير" The Prince يستفيد "ماكيافللى" فائدة كبيرة من "التاريخ" ويستخلص نظريته فى ثبات الطبيعة البشرية، وفيه يشير إشارات كثيرة إلى أحداث عصره لتأييد قضية معينة تتناول شروط النجاح السياسى (64).

وتحدث "أيبوليت أدولف تين" Hippolyte Adolphe Tine (1828 - 1893)- المؤرخ والناقد والفيلسوف الفرنسى الذى كتب عن تاريخ عصر النهضة فى كتابه "تاريخ الأدب الإنجليزى" - عن انتقال النهضة خارج إيطاليا خاصة إنجلترا، حيث بدأت الاكتشافات وتقدمت الصناعة واتجهت العلوم نحو طريق التجديد، كذلك بدأت العلوم التجريبية تنمو، واتجه الإصلاح إلى الدين. كما كتب أيضاً "بوليدور فرجيل" Polydore Virgil (1470-1555) عن تاريخ إنجلترا فى عهد هنرى السابع، الذى ظل نموذجاً لكل من جاء بعده من مؤرخى الإنجليز (65).

وكان لحركة الإصلاح الدينى التى تزعمها "مارتن لوثر" Martin Luther (1483-1546) أثر عميق على الدراسات الفلسفية عامة والتاريخ بخاصةٍ. فقد أشاع "لوثر" - أثناء تدريسه الفلسفة فى جامعة "وتنبرج" Wittenberg عام 1508 واللاهوت فى عامى 1515-1516- روح النقد والتحليل، حين دعا لدراسة الكتاب المقدس وإعادة كتابته باللغة الشعبية، وقد ساعد هذا على انتشار كلمات الإنجيل على أوسع نطاق بين الناس. وقد نشر رأيه بصراحة فى أن الكنيسة قد انحرفت عن طريقها السوى الذى كانت تسير عليه فى عهد "المسيح" و"الرسل الأوائل"(66).

فى تلك الفترة وصل البحث التاريخى إلى قمته بسبب الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت، وكانت حصيلة هذا ظهور العديد من الكتب والأبحاث

ونشر العشرات من الوثائق. فكتب مثلاً: "روبرت بارنز" Robert Barnas (1495 - 1540) عن سير بابوات روما، وكتب "جون فوكس" John Foxe (1517 - 1687) كتاب "الشهداء" Book of Martyrs. ونشر "ماثياس فلاكيوس" Mathias Flacius (1520 - 1575) كتابه عن "تاريخ الكنيسة المسيحية" منذ قيامها فى عهد الرسل حتى القرن الخامس عشر، باسم "قرون مجدبرج" Magdeburg Centuries، تناول فيه ما كان يجرى فى المجامع الدينية، وما صدر عن البابوات. وتحمس عدد من الكاثوليكيين للرد عليه، وفى مقدمة هؤلاء "قيصر بارونيوس" Caesar Baronius (1538 - 1607)، من مؤرخى الكنيسة اللاتينية والذى كان أميناً لمكتبة الفاتيكان الضخمة التى يرجع الاهتمام بها إلى البابا "نيقولا الخامس"، نشر "بارونيوس" كتاباً بعنوان "الحوليات" للرد على ما جاء فى كتاب "فلاكيوس"؛ وترتب على ذلك انتشار العديد من المعلومات والوثائق (67).

ولابد من القول أن كل ما تمحصت عنه حركة الإصلاح الدينى والإصلاح المضاد لم يؤد إلى دراسة "التاريخ" بالمعنى الحديث، ولم يتعد تهيئة الأدوات والمواد المساعدة على دراسته. كما يمكن القول بأن نشأة الدول القومية الأوروبية وحاجتها إلى مؤرخين قد جعلت المؤرخين الإيطاليين يتأثرون بفيلسوف العصر "جوتفريد ليبنتز" G.Leibniz (1646 - 1716) فكتب "انطونيو موراتوري" Antonio Muratori (1672 - 1750) المؤرخ الإيطالى الشهير الذى كان أمين مكتبة نابولى، تاريخ أسرة "إستة" Este عام 1708 على غرار "التاريخ" الذى كتبه "ليبنتز" لأسرة "الدوق براونشفيك" Duke of Brunswick دوق هانوفر Hanover. لكن ظلت الغاية الأساسية من "التاريخ" عند "ليبنتز" مثل الغاية النهائية من الشعر، أن يعلمنا الحكمة

والفضيلة عن طريق الأمثلة التى يقدمها لنا من خلال "التاريخ"، وأن يعرض للرذيلة فى صورة تدعو إلى تجنبها وكراهيتها [68].

وساهم أصحاب النزعة الإنسانية Humanism فى عصر النهضة فى نشر مؤلفات الكتَّاب القدامى، وبعث التراث الكلاسيكى فى البلاغة والأدب والنحو والفلسفة والتاريخ؛ فأهتموا بنشر كتابات المؤرخين الرومان مثل "تيتوس ليفيوس" Titus livy (59 B.C-17) و"تاسيتوس" Tacitus (55-120) لاستخلاص ما فيها من عبرة وقيم تربوية وتعليمية وأخلاقية، كذلك "تاريخ" "بلوتارك" Plutarch (46-190) الذى يزخر بالشخصيات العظيمة مثل الاسكندر وقيصر؛ غير أن النزعة الإنسانية قد اقتصرت على النظر إلى "التاريخ" نظرة عملية أخلاقية بحيث لم تظهر لديها النظرة العلمية [69].

ثم كان كتاب "فرنسيس بيكون" Francis Bacon (1561 - 1626) "تقدم العلم"[70] بداية الانتقال من الناحية الفلسفية إلى الناحية التاريخية، وفيه وجه "بيكون" الأنظار إلى ضرورة الاهتمام بـ"التاريخ" بجانب الاهتمام بالأخلاق. وتم الانتقال من النظرة إلى "التاريخ" كمصدر للعظة الأخلاقية والتربوية، إلى الاهتمام بدراسة الوقائع التاريخية دراسة علمية[71]. بدأ هذا التحول عند "توماس هوبز" Thomas Hobbes (1558 - 1679) الذى تعمق فى دراسة الكتَّاب القدامى من اليونان والرومان، وخاصة المؤرخين والشعراء والفلاسفة، وبوجه أخص مؤلفات "أرسطو" Aristolte (384-322 B.C) فى الأخلاق والسياسة، واتجه إلى "هوميروس" وترجم "الإلياذة"؛ وأهتم بقراءة "ثيوكيديس" الذى اعتبره أهم المؤرخين السياسيين، وترجم كتابه عن "الحرب البلوبونيزية" بين أثينا وأسبرطة. ثم عكف "هوبز" بعد ذلك على دراسة "إقليدس" Okulaid (305 - 300 B.C) و"جاليليو" Galileo (1564 - 1642).

وتوصل إلى أن "التاريخ" ليست له إلا قيمة أخلاقية، واستبعد المعرفة التاريخية من كتابيه "التنين" و"الجسم"؛ وانتهى إلى أن "التاريخ" مجرد حكايات يمكن أن تساعدنا على تكوين أحكامنا والارتقاء بعقولنا وتعريفنا بعادات الأمم الأخرى، ولكن الإمعان فى قراءة "التاريخ" قد يجعل صاحبه يعرف العادات السائدة فى الماضى مع جهله بالعادات السائدة فى الحاضر. ثم جاء "ديكارت" Descartes (1596 - 1650) وأقام تفرقته بين المعرفة العقلية الدقيقة القائمة على أسس رياضية وبين المعرفة التى تقوم على الخبرة البشرية، كما نجدها فى معرفة "اللغات" و"التاريخ" و"الجغرافيا" التى تثقل فى رأيه ذاكرة الإنسان بأعباء غير ضرورية [72].

ومن الذين برزوا فى القرن الثامن عشر [73] فى مجال التاريخ الفيلسوف الإيطالي "ڤيكو"، فقد نشر عام 1725 كتابه "مبادئ العلم الجديد"، ذهب فيه إلى أن "التاريخ" ليس من صنع القدر ولكن من صنع العقل أى من صنع البشر؛ ولهذا لابد أن نجد مبادئ "التاريخ" فى تحولات عقلنا البشرى نفسه. ويتعجب "ڤيكو" تعجباً شديداً من اتجاه الفلاسفة إلى دراسة العالم المادى الطبيعى الذى هو من صنع الله وهو وحده القادر على معرفته معرفة تامة، بينما أهملوا البحث عن عالم التاريخ البشرى وكانوا كالعين التى ترى كل شىء خارجها وتحتاج لمرآة لترى نفسها. ولما كان الإنسان هو صانع "التاريخ"، فلابد أن تكون هناك تنظيمات أساسية وافق عليها كل البشر، ومن هذه التنظيمات ستخرج المبادئ العامة الخالدة التى وجدت فى كل الشعوب. هذه المبادئ الأساسية التى يراها "ڤيكو" تتلخص فى ثلاثة: الدين أو العقيدة، الزواج وما يرتبط به من تحكم فى الانفعالات، دفن الموتى وما يرتبط به من خلود الروح البشرية [74].

أما "مونتسكيو" فهو فى مقدمة المفكرين والمنظرين الذين مهدوا بفكرهم للثورة الفرنسية، وهو الذى أحدث ثورة منهجية بصياغته وتطويره لجملة من المبادئ النظرية، تمحورت حول فكرة إنشاء فيزيقا اجتماعية تمتلك منهجاً مماثلاً لمناهج العلوم الطبيعية بحيث يسمح لها - هذا المنهج - بتفسير الاجتماع الإنسانى وآلياته تفسيراً علمياً. ويُعَد كتابه "روح القوانين" أعظم كتاب ظهر فى القرن الثامن عشر، وفيه درس نظامى الحكم الإنجليزى والفرنسى ووازن بينهما، وأشار إلى تطور نظام الحكم عند الرومان وغيرهم من النظم السياسية فى الماضى والحاضر. وتوصل - فى النهاية - إلى قاعدة هامة هى: أن الأنظمة السياسية لكى تكون أنظمة ناجحة لابد أن تكون ملائمة للحياة الطبيعية والخصائص العقلية. يقول: "لقد تفحصت البشر بادئ ذى بدء، واعتقدت فى تنوع القوانين واختلاف الطبائع ووجدت أنهم لم يكونوا مسيرين بأهوائهم فقط. لقد وُضعت المبادئ، وأبعدت خضوع الأحوال الخاصة لهذه المبادئ من تلقاء نفسها، وأدركت أن تواريخ جميع الأمم ليست غير نتائج لها، وكل قانون خاص يرتبط بقانون آخر أو يتعلق بقانون أعم "[75].

وعندما نشر "ڤولتير" مؤلفه الأول فى "التاريخ" عن حياة وأعمال "شارل الثانى عشر" وحروبه مع الروس عام 1731، رأى الناس فيه لوناً جديدًا من "التاريخ" لم يعرفوه إلى ذلك الحين، هذا بالإضافة إلى كتابه البديع" خطابات فلسفية" الذى يدخل فى نطاق المؤلفات الفلسفية، إلا أنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وأحوال الزمان. أما كتابه "عصر لويس الرابع عشر" فقد أبدى فيه براعة فائقة فى تحليل أسباب الضعف فى فرنسا أثناء عهد هذا الملك.

ويعتبر كتاب "إدوارد جيبون" انحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها" من أشهر الكتب التى شاعت أثناء الثورة الفرنسية، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات.

أما المؤرخون الألمان، فقد تميزت كتاباتهم بالدقة والنقد، ويظهر هذا جلياً فى كتابات "وولف" F.A Wolf (1759 - 1824) الذى نفى ما كان شائعاً من أن الإلياذة والأوديسة كتبها "هوميروس"، وذهب إلى أنها من عمل جماعة من الشعراء فى فترات زمنية متباعدة.

كذلك كتابات المؤرخ والفيلسوف الألمانى "هردر" الذى كان معاصراً لـ "روسو" Rousseau (1712 - 1778)، وأطلق عليه اسم "روسو الألمانى، واشتهر بكتابه عن فلسفة "التاريخ". ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه المؤرخ الألمانى "برتولد ينبور" B.Niebuhr (1776 - 1831) عن تاريخ الرومان، حلل فيه ما كتبه "ليفى" Livius (59 B.C-17) عن النظام الجمهورى، فأثبت أنه بعيد كل البعد عن الحقيقة؛ واستطاع "نيبور" أن يفصل الأساطير فصلاً واضحاً دقيقاً عن الواقع التاريخى [76]. كذلك كتابات " ليوبولد فون رانكى " Leopold von Ranke (1795 - 1886) الذى كتب فى تاريخ إيطاليا وتركيا وانجلترا وفرنسا، بالإضافة إلى مؤلفه الكبير عن "تاريخ العالم".

وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته فى القرن التاسع عشر، الذى وضع المناهج المتميزة للمعرفة التاريخية وأحدث نوع من الثورة الكوبرنيقية التى أدت إلى تقديم علم "التاريخ" فى صورة جديدة.

* * * *

هوامش الباب الثانى

(1) هناك صلة وثيقة بين "الأسطورة" و"التاريخ" باعتبارهما نتاجان من نواتج الثقافة البشرية، فكليهما ينشأن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر؛ ولكنهما يفترقان فى القيمة التى تسبغها عن ذلك الأصل. فهو أصل "مقدس" عند "الأسطورة"، وأصل "دنيوى" مفرغ من الأسطرة عند "التاريخ". وبتعبير آخر، إن "الأسطورة" تنظر إلى "التاريخ" بوصفه تجل للمشيئة الإلهية، أما "التاريخ" فينظر إلى موضوعه بوصفه تجل للإرادة الإنسانية فى جدليتها مع القوانين الفاعلة فى حياة الإنسان الاجتماعية.

انظر فى ذلك: فراس السواح، **الأسطورة والمعنى**: دراسات فى الميثولوجيا والديانات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1997، ص 91.

(2) المرجع السابق، ص ص 113 - 114.

انظر أيضاً:

- Fling F.M, **The writing of History**, An introduction to Historical Method, New Haven, Yale university press, 1926, p 40.

(3) "ثيوكيديس" مؤرخ يونانى شهير، كتب تاريخ الحرب البلوبونيزية بين أثينا وأسبرطة اشترك فيها وأصبح قائداً فى عام 424، وحينما أخفق فى هزيمة "براسيداس" ولم يستطع إنقاذ "أمفيبوليس" تقرر نفيه من أثينا؛ وفى أثناء نفيه كتب تاريخ الأحداث التى تمت فى هذه الحرب والتى تعد من أهم المؤلفات التاريخية.

(4) "أبقراط" ولد بجزيرة "كاوس" وعاش حوالى خمسة وتسعين عاماً تعلم خلالها الطب من أبيه وبرع فيه. يعد "أبقراط" أول من دوّن الطب وحرره من سيطرة رجال الدين ورفع مسئولية علاج المرضى من الآلهة ووضعها على عاتق الإنسان وحده، بل هو أيضاً أول من وضع قواعد صحيحة بنى عليها أساس الطب الحديث، فكان بلا منازع أعظم طبيب فى تاريخ الطب القديم.

لمزيد من التفصيل انظر: حسين على، **فلسفة الطب**، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص 20.

(5) **الموسوعة الفلسفية العربية**، المجلد الثانى (المدارس والمذاهب والاتجاهات والتيارات)، القسم الثانى: ص - ي، معهد الإنماء العربى، تحت إشراف د. معن زيادة، 1988، ص 985.

انظر كذلك: أرنولد توينبى، **الفكر التاريخى عند الأغريق**، ترجمة لمعى المطيعى، مراجعة د. محمد صقر خفاجة، سلسلة الألف كتاب الثانى، عدد (90)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990، ص 62.

(6) ناجى نهر، **منهجية كتابة التاريخ**.

- http://al_nnas.com/ARTICLE/NNahar/23icp2.htm.2010.p2.

(7) انظر: جيمس هنرى برستد، **فجر الضمير**، ترجمة سليم حسن، مراجعة عمر الاسكندرى، وعلى أدهم، مكتبة مصر، القاهرة، 1980، ص 2 من مقدمة المترجم.

(8) المرجع السابق، ص ص 2-3.

(9) راجع فى ذلك: روبرت آراموار، **آلهة مصر القديمة وأساطيرها**، ترجمة مروة الفقى، مراجعة محمد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، عدد (902)، القاهرة، 2005، ص 10.

انظر أيضاً: جيمس برستد، **المرجع السابق**، ص ص 42 - 43.

(10) "سشات" ربة الكتابة والكتبة والمعماريين فى مصر القديمة، لقبت بـ"المشرفة على المكتبات"، ترتكز وظيفتها أساساً على التسجيل اليومى المتتابع للأحداث التى تقع أبان حكم أى فرعون. وتمثل "سشات" - عادة - وقد توجت رأسها بنجمة أو زهرة، وتمسك بيدها بعض أدوات الكتابة. وغالباً ما ترتدى، فوق ظهرها جلد فهد كعلامة للحماية والوقاية، ويجسد ذلك نزاهتها واستقامتها الكاملة من خلال وظيفتها التى تؤديها فى إطار البلاط الملكى. وكانت "سشات" ترأس طقوس وضع أساسات المعابد، بل هى على بينة ومعرفة بأسرار "تحوت"، حيث اعتبرت الكفيلة بالحفاظ على تعاليم الأسرار الملكية.

انظر: روبير جاك تيبو، **موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية**، ترجمة فاطمة عبدالله محمود، مراجعة محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للثقافة، عدد (482)، القاهرة، 2004، ص 192.

(11) جفرى بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة إمام عبدالفتاح، مراجعة عبدالغفار مكاوى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد (173)، 1993، ص 41.

(12) المرجع السابق، ص ص 41 - 42.

انظر أيضًا: موريس بير برايز، **صناع الخلود**، ترجمة عكاشة الدالى، سلسلة الألف كتاب الثانى، عدد (127)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 7.

(13) "متون الأهرام" هى أقدم مصدر وصل إلينا عن تفكير المصرى القديم، وكان الظن السائد أن كل الأهرام كانت عارية من النقوش إلى أن أقتحم العمال المصريون الذين كانوا يعملون فى الحفائر عام 1880، ودخلوا هرم "بيبى الأول" وهرم الملك "مرنرع" فوجدوا جدران أروقة هذين الهرمين وممراتها وحجراتهما مغطاة بآلاف الأسطر من النقوش الهيروغليفية، وهذه النقوش هى التى يطلق عليها اسم "متون الأهرام". وتوجد هذه المتون منقوشة فى خمسة من أهرام سقارة التى كانت تعد جبانة "منف" القديمة، وتلخص - هذه المتون - مجموعة الممارسات والعبادات المكونة للطقوس الجنازية بمصر إبان الدولة القديمة، وتعد - بلا ريب - مرجعاً وافياً لكل محاولة تهدف إلى فهم العقيدة المصرية؛ فهى تنبثق من التقاليد الشفهية البدائية التى ترجع عادة إلى عام 5000 ق.م.

لمزيد من التفصيل انظر: جيمس برستد، **فجر الضمير**، ص 82.

أيضاً: روبير جاك تيبو، **موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية**، ص 51.

(14) جفرى بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ص 42.

(15) من أقدم المحاولات لتدوين التاريخ تلك التى قام بها الكاهن المصرى القديم "مانيثون" Manetho الذى عاصر بطليموس الأول وبطليموس الثانى، وضع باليونانية تاريخاً لقدماء المصريين استمد مادته من مصادر مصرية قديمة، وقد ضاع مؤلفه ولم يتبق منه سوى نبذة بسيطة انتفع بها علماء المصريات انتفاعاً كبيراً. استلهم "مانيثون" من البحث المعنون بـ vieille chronique أى الحوليات القديمة، الدقة الواجبة على تقسيم فراعنة مصر إلى ثلاثين أسرة. ولا ريب أن هذا التاريخ - الذى كتبه مانيثون - قد قوبل بجدال من جانب علماء المصريات.

انظر: روبير جاك تيبو، **المرجع السابق**، ص 284.

أيضاً: هرنشو، **علم التاريخ**، ص 16.

(16) الواقع أنه لا توجد قوة أثرت فى حياة المصرى القديم مثل قوة "الدين"، لأن تأثيرها يشاهد واضحاً فى كل نواحى نشاطه، ولم يكن أثر هذه القوة فى أقدم مراحلها الأولى إلا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الإنسان على ما حوله فى العالم ويخضعه - بما في ذلك الآلهة - لسيطرته؛ فصار وازع "الدين" هو المسيطر الأول عليه فى كل حين. فما يولده الدين من مخاوف هى شغله الشاغل، وما يوحى به من آمال هى ناصحه الدائم، وما أوجده من أعياد هى تقويمه السنوى، وشعائره - برمتها - هى المربية له

والدافعة على تنمية الفنون والآداب والعلوم. وفى هذا يقول المؤرخ اليونانى "هيرودت": "إن المصريين أكثر تقوى من سائر البشر ويهتمون كل الاهتمام بالشعائر المقدسة ... فقد سبقوا شعوب العالم إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة، وعنهم تعلم الإغريق، ودليلى على ذلك، أنها تقام فى مصر منذ زمن بعيد، بينما لم يحتفل بها الإغريق إلا منذ وقت قريب ".

انظر فى ذلك:

- جيمس برستد، **فجر الضمير**، ص 36.
- Smart, Ninian, **The Religious Experience of Mankind**, Collins, Fount paperbacks, 1969, p 289 (Egyptian Religion).
- ياروسلاف تشرنى، **الديانة المصرية القديمة**، ترجمة أحمد قدرى، مراجعة محمود ماهر طه، مشروع المائة كتاب، عدد (6)، هيئة الآثار المصرية، 1987، ص (هـ) من مقدمة المراجع.
- إيزابيل فرانكو، **أساطير وآلهة**، ترجمة حليم طوسون، مراجعة محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للثقافة، عدد (655)، القاهرة، 2005، ص 22.

(17) جفرى بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ص 43.

أيضاً: روبير جاك تيبو، **موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية**، ص ص 84 - 85.

(18) تسمى الصين "جنة المؤرخين" ذلك لأنها ظلت مئات وآلافاً من السنين تحتضن مؤخرين رسميين يسجلون كل ما يقع من الأحداث الهامة لتاريخ الصين منذ عام 3000 ق.م.

(19) "شانج" الأسرة المالكة التى يبدأ بها التاريخ المسجل للصين، وتختلف الروايات بشأن مدة حكمها للبلاد، فالبعض يشير إلى القرن الرابع عشر ق.م، والبعض الآخر يرى أن حكمها قد استمر من القرن السادس عشر حتى القرن الحادى عشر ق.م؛ وقد تم إلقاء أضواء قوية على الحياة فى حكم هذه الأسرة.

انظر: جون كولر، **الفكر الشرقى القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبدالفتاح، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد (199)، 1995، ص 346.

(20) جفرى بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ص ص 270 - 271.

انظر أيضاً: فؤاد محمد شبل، **حكمة الصين**، دار المعارف، القاهرة، 1967، الجزء الأول، ص 32.

(21) حكمت أسرة "تشو" - على نحو ما تؤكد وثائق عهدها - معتقدة أن رسالتها قد قضت بها السماء. فالسماء هى التى أزاحت أسرة "شانج" وأنهت تفويضهم بالحكم، وهى التى كلفت أسرة "تشو" الملكية بتولى هذا المنصب الذى هو "تفويض من السماء". وتعتقد هذه الأسرة أن الإله الأعلى هو السلف الأعظم (شانج - تى Chang-Ti) وهو لفظ مرادف لـ"تين Tien" (أى السماء). وتمسك السماء - أو هكذا كان الاعتقاد السائد - بيدها الكون بأسره، وتقض بتعاقب الفصول فى مواقيتها، وتأمر بدورة الموت والتجدد، وتكفل خصوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل. غير أن السماء تمنح مسئولية تنظيم الكون لوصيها على الأرض وهو ابن السماء "تين تزو" Tien-Tzu، وقد وقع الاختيار على أسرة "تشو" للقيام بهذا الدور.

لمزيد من التفصيل انظر: جفرى بارندر، **المرجع السابق**، ص 272.

انظر أيضاً: آلبان. ج. ويدجرى، **التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبى**، ص 27.

أيضاً: إمام عبدالفتاح، **معجم ديانات وأساطير العالم**، مكتبة مدبولى، القاهرة، المجلد الأول، ص 262.

(22) جون كولر، **الفكر الشرقى القديم**، ص ص 331 - 332.

(23) "كونفوشيوس" Canfucius ولد عام 551 ق.م فى مدينة "لو" Lu الصغيرة بولاية "شانتونج" Chantung وتوفى بها عام 479 ق.م، واسمه هو النطق اللاتينى لـ"كونج فو - تسو Kung fu-tzu" الصينية والتى تعنى الحكيم أو المعلم "كونج".

(24) راجع فى ذلك:

- جون كولر، **المرجع السابق**، ص 334.
- ول دورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة زكى نجيب محمود، ومحمد بدران، المجلد الثانى، (3-4)، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2001، ص 49.
- فؤاد شبل، **حكمة الصين**، ص 41.
- صلاح رسلان، **كونفوشيوس رائد الفكر الإنسانى**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 21.
- هالة أبو الفتوح، **فلسفة الأخلاق والسياسة**: المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 34.

(25) "الڤيدا" veda هى الكتب المقدسة فى الديانة الهندوسية، والكلمة تعنى المعرفة المرتبطة بالعمل القادر على قهر التجزئة والاغتراب فى إطار عملية توحيد كل الكائنات، وملء الحياة بطاقة مقدسة. وكلمة " الڤيدات" يطلقها الهنود على تراثهم المقدس الذى ورثوه من أولى مراحل تاريخهم، ولم يبق من هذا التراث سوى أربعة أسفار هى:

1- الريج - ڤيدا Rig-Veda المعروفة باسم " الڤيدا النارية" أو "الڤيدا المنسوبة إلى النار" والسفر قسمان: أولهما: أدعية وصلوات وتراتيل شعرية، والآخر: يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية.

2- ساما- ڤيدا Sama-veda ومعناها " الڤيدا الشمسية" أو "الڤيدا المنسوبة إلى الشمس"، وهى أيضاً قسمان: أحدهما: تراتيل دينية، ويشتمل الآخر على تعاليم متعلقة بإقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

3- ياجورا - ڤيدا Yajora-veda أو "الڤيدا الهوائية" أو "الڤيدا المنسوبة إلى الهواء"، وتضم مجموعتين يطلق على أحداهما اسم "الياجورا ڤيدا البيضاء"، وعلى الأخرى، بـ"الياجورا السوداء".

4- أثارفا- ڤيدا Atharva-veda وهى أيضاً قسمان، الأول: يحتوى على أوراد وأدعية للاستغفار والرقى ضد السحر والأرواح الشريرة المدمرة والخبيئة، ويشتمل الآخر على طائفة من شرائع الديانة البرهمية.

انظر فى ذلك:

- إمام عبدالفتاح، **معجم ديانات وأساطير العالم**، المجلد الثالث، ص 384.
- أ. س. ميغوليفسكي، **أسرار الآلهة والديانات**، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2005، ص 140.
- ول ديورانت، **قصة الحضارة**، المجلد الثانى، (3-4)، ص ص 36 - 37.

(26) "السوترا" Sutra كلمة سنسكريتية، يعود استخدامها فى اللغة الانجليزية إلى عام 1801، وهى تعنى أصلاً " الخيط" أو "القاعدة" ، وقد انصرفت فى الأدب السنسكريتى إلى قاعدة موجزة من قواعد اللغة أو القانون أو الفلسفة. و"السوترا" تعبر عن مرحلة من مراحل التطوير وفق المدارس المختلفة لنصوص "الڤيدا"، ويشار كذلك إلى أن الكلمة تعنى تلخيصاً لجانب من التعاليم الهندوسية.

انظر: جون كولر، **الفكر الشرقى القديم**، ص 42.

أيضاً: إمام عبدالفتاح، **المرجع السابق**، ص 281.

(27) "سامهيتا" Samhitas المجموعة الأساسية من الترانيم فى "الڤيدا".

(28) "البراهمانا" Brahmanas أعلى طبقة اجتماعية فى الهندوسية، وهى طبقة الكهنة.

(29) "الأرانياكا" Arabyakas أو نصوص الغابة، وهى خاصة بالنساك، لكنها يمكن أن تكون هداية للشيوخ والمعمرين الذين تركوا أهلهم ليقيموا فى الكهوف والغابات.

(30) "الأوبانيشاد" Upanishad كلمة مؤلفة من مقطعين "يوبا" Upa ومعناه "القرب من" و"نيشاد" Nishad ومعناها يجلس، والمصطلح يعنى حرفياً - فى الديانة الهندوسية - "يجلس بالقرب من المعلم" أو "تحت أقدام المعلم". و"الأوبانيشاد" عبارة عن مجموعة من الكتابات الفلسفية تغطى فترة زمنية حول 500 سنة ق.م.

(31) راجع فى ذلك: جون كولر، **الفكر الشرقى القديم**، ص ص 37 - 38.

(32) "البوذية" Buddhism المذهب الذى قال به جون سد هارتا فى شمالى الهند فى القرن السادس ق.م. واستهدف - فى جوهره - التحرر بنور البصيرة، واعتمد على التأمل للوصول إلى حالة النيرفانا.

جون كولر، **المرجع السابق**، ص 42.

(33) المرجع السابق، ص 41.

(34) ما تزال كلمة "ملحمة" Epic غامضة فى كثير من الأحيان، لكن الرأى السائد هو أن الكلمة تشير إلى القصيدة القصصية الطويلة التى تسجل الأعمال البطولية الخارقة التى صدرت عن بعض الأبطال الحقيقيين أو الأسطوريين، والتى تمتزج فيها أفعال البشر وتصرفات بعض الكائنات الإعجازية الخفية كالآلهة والمردة والشياطين والوحوش المخيفة؛ بل أيضاً بعض القوى الكونية والظواهر الطبيعية التى تقوم بدور مساعد فى إنجاز هذه الأعمال البطولية. إلا أننا نجد ميلاً واضحاً فى بعض الكتابات الحديثة إلى إطلاق كلمة "ملحمة" على بعض الأعمال الروائية الكبرى مثل رواية "تولستوى" Tolstoy (1828 - 1910) "الحرب والسلام"، بل إن بعض الأفلام السينمائية الضخمة تعتبر إبداعيات وأعمالاً ملحمية. وبذلك فإن كلمة "ملحمة" لم يعد استخدامها مقصوراً على روائع الأعمال الشعرية القصصية الضخمة التى عُرفت فى العصور الكلاسيكية القديمة (فى الشرق والغرب على السواء) وفى العصور

الوسطى وعصر النهضة فى أوروبا، بل إن استخدامها يمتد لكى يشمل ما يُعرف الآن باسم " الشعر الملحمى الحديث " وايضاً " المسرحى الملحمى " Epic Theatre.

انظر: أحمد أبو زيد، **الملاحم كتاريخ وثقافة**، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الأول، الكويت، 1985، ص 4.

(35) "هوميروس" Homer لا نعرف شيئاً عن حياته، ووصلتنا سير كثيرة لـ"هوميروس" من العصر اليونانى الرومانى، ولكنها جميعاً من صنع الخيال. هناك حقيقتان فقط مؤكدتان: الأولى أنه كان أعمى، والثانية أنه من ساحل آسيا الصغرى أو الجزر المحاذية له، وجزيرة "خيوس" هى الأقرب إلى نيل هذا الشرق.

يقول "ثيوكيديس" إنه عاش بعد حصار طروادة بزمن طويل، ويقول شيشرون" cicero خطيب روما (106 - 43 ق.م) إنه ولد قبل تأسيس روما عام 753 ق.م.

(36) "الإلياذة" ilias "قصة إليون" أو "أليوس" ilion, ilios وهما الاسمان الأصليان للمدينة التى عرفت أيضاً باسم طروادة Troie وباللاتينية Troia وهو الاسم الأشهر، وإن كان فى الأصل يعنى المنطقة المحيطة بالمدينة لا المدينة نفسها.

(37) "الأوديسة" Odysseia هى اسم لقصة "أوديسيوس" ولم تترجم إلى اللغة العربية لا قديماً ولا حديثاً.

انظر: هوميروس، **الإلياذة**، تحرير وتقديم ومراجعة: أحمد عتمان، المجلس الأعلى للثقافة، عدد (750)، القاهرة، 2004، ص ص 9-10.

(38) المرجع السابق، ص 17.

(39) المرجع السابق، ص ص 17-18.

انظر أيضاً: أليان. ح. ويدجرى، **التاريخ وكيف يفسرونه**، ص ص 99-100.

(40) "هيرودوت" Herodutus (480 - 425 ق.م) يعرف بأبى "التاريخ"، وهو من مواليد "هاليكارناسوس بأسيا الصغرى. هاجر فى سن مبكرة إلى مسقط رأسه "أثينا"، وقام برحلات كثيرة زار فيها بلاد اليونان وجنوبى إيطاليا ومصر وبابل. خلف لنا تسع كتب باسم "التواريخ" تحكى قصة الحروب بين الفرس واليونان.

(41) نقلاً عن: محمد عواد حسين، **صناعة التاريخ**، ص 123.

(42) كولنجوود، **فكرة التاريخ**، ص 58.

انظر أيضاً: هرنشو، **علم التاريخ**، ص ص 18 - 19.

(43) نقلاً عن: محمد عواد حسين، **المرجع سالف الذكر**، ص 124.

انظر كذلك: أرنولد توينبى، **الفكر التاريخى عند الإغريق**، ص 18.

(44) لمزيد من التفصيل انظر: محمد فريد وجدى، **دائرة معارف القرن العشرين**، دار الفكر، بيروت - لبنان، المجلد الرابع، ص 429 وما بعدها.

(45) كولنجوود، **المرجع سالف الذكر**، ص 78.

(46) فراس السواح، **الرحمن والشيطان**: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ فى الديانات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2004، ص 17.

(47) المرجع السابق، ص 18.

(48) لويس جنز برج، **قصص اليهود**، ترجمة وتفسير، جمال الرفاعى، مراجعة وتقديم محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، عدد (465)، القاهرة، 2002، ص 12 من مقدمة المترجم.

(49) انظر: توماس ل. تومسون، **أسفار العهد القديم فى التاريخ**: اختلاق الماضى، ترجمة عبدالوهاب علوب، مراجعة وتقديم محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، عدد (185)، القاهرة، 2000، ص 294.

(50) لويس جنز برج، **المرجع سالف الذكر**، ص 13.

(51) لمزيد من التفصيل انظر: روبرتسن سميث، **محاضرات فى ديانة الساميين**، ترجمة عبدالوهاب علوب، مراجعة وتقديم محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص ص 11 - 12.

انظر أيضاً: كيث واتيلام، **اختلاق إسرائيل القديمة**: إسكات التاريخ الفلسطينى، ترجمة سحر الهنيدى، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد (249)، 1999، ص 129.

(52) فراس السواح، **الرحمن والشيطان**، ص ص 252 - 253.

انظر أيضاً: كولنجوود، **فكرة التاريخ**، ص 110.

(53) المرجع السابق، ص ص 114 - 115.

كذلك: محمد عواد حسين، **صناعة التاريخ**، ص 128.

(54) إتين جلسون، **روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط**، ترجمة إمام عبدالفتاح، مكتبة مدبولى، القاهرة، 1996، ص 444.

انظر أيضاً: عصمت نصار، **فلسفة اللاهوت المسيحى**، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص 204.

(55) **الموسوعة الفلسفية العربية**، المجلد الثانى، ص 986.

(56) أحمد تمام، **الخطيب البغدادى فى ذكرى ميلاده**.

http://www.islamonline.net/servlet/satellite?C=Article_C&cid.6/2007.p1

(57) سعيد عبدالفتاح عاشور، **الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية**، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الحادى عشر، العدد الأول (إبريل - مايو - يونيو) ، 1980، ص 87.

انظر أيضاً: هرنشو، **علم التاريخ**، ص ص 31 - 32.

(58) أنور الجندى، **الإسلام وحركة التاريخ**: رؤيا جديدة فى فلسفة تاريخ الإسلام، دار الكتاب اللبنانى. دار الكتاب المصرى، بيروت - لبنان، 1986، ص ص 13 - 14.

(59) حسين مؤنس، **التاريخ والمؤرخون**، ص 61.

انظر أيضاً: إسماعيل نورى الربيعى، **النزعة التاريخية ومعنى التاريخ**.

http://www.iraqiartist.com/iraqiwriter/lraqi.2006.p2.

(60) يعنى لفظ " النهضة" Renaissance إعادة الولادة Rebirth والتجديد Renewal وجاء من الفعل الفرنسى Renaitre أى يولد مرة أخرى To be born again ومن اللفظ اللاتينى Renasci.

انظر فى ذلك:

- Edward Craig, **Routledge Encyclopedia of philosophy**, London and New York, 1998, p 264.

(61) هرنشو، **علم التاريخ**، ص ص 48 - 49.

انظر أيضاً: شوقى الجمل، **علم التاريخ**: نشأته وتطوره، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1982، ص ص 13 - 14.

(62) ولد "ماكيافللى" فى الفترة التى يسميها مؤرخ من أكبر المؤرخين الإنجليز وهو "ج. أ. سيموندز" J.A. Symonds (1840 - 1893) "عصر الطغاة"، وهو حفيد أسرة عريقة يرجع تاريخها إلى القرن التاسع، عرفت بمقتها الشديد لحكم "ال مديتشى"؛ فلقد لقى أحد أفرادها حتفه فى ظلمات السجن لكراهيته الشديدة لحكم هذه الأسرة.

انظر: نيقولا ماكيافللى، **دراسة تحليلية محورها كتاب الأمير**، ترجمة وتحليل وتعليق محمد مختار الزقزوقى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004، ص ص 28 - 29.

(63) كان لـ"فلورنسا" شأن كبير فى مجال الفكر والأدب، حتى أن بعض المؤرخين يشبهها بأثينا فى عصر ازدهارها. اجتمع فى "فلورنسا" حب المال والجمال والانفتاح على العالم، والتطلع إلى المعرفة؛ ونشأ فيها مؤرخون تربوا على حب "التاريخ" الرومانى واليونانى، وعركوا الحياة فى المجالس المدنية وفى بلاطات الأمراء الأجانب. كذلك أحرزت "فلورنسا" تقدماً كبيراً فى مجالات عديدة منها: الأدب والعلم والصناعة والتجارة، ومنها خرج علم الاقتصاد السياسى. ويعتبر "جيتشاردينى" Guicciardini (1483 - 1540) أهم مؤرخ لفلورنسا، وقدم فى سنواته الأخيرة كتابيه: "حوار فى نظام فلورنسا" و"الحكاية الفلورنسية"، وهما من أفضل ما كُتب فى هذا المجال.

انظر فى ذلك: إبراهيم مصطفى إبراهيم، **الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم**، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2000، ص ص 47 - 48.

(64) نيقولا ماكيافللى، **مرجع سبق ذكره**، ص 51.

(65) Anthony Kenny, **Renaissance Thinker**, Oxford, New York, 1993, P. 209.

انظر كذلك: هرنشو، **علم التاريخ**، ص 51.

(66) Brain, P. Copenhaver and Charles B, Schmitt, **Renaissance Philosophy**, OxFord, university Press, 1992, p 108.

قارن كذلك: جون هرمان راندال، **تكوين العقل الحديث**، ترجمة جورج طعمة، دار الثقافة، بيروت - لبنان، الجزء الأول، 1965، ص 249.

(67) هرنشو، **مرجع سبق ذكره**، ص 57.

(68) عطيات أبو السعود، **فلسفة التاريخ عند جامبا تيستافيكو**، ص ص 23 - 24.

انظر أيضاً:

- C.D. Broad, **Leibniz**: An introduction, Cambridge university press, 1975, pp.1-5.

(69) عطيات أبو السعود، **المرجع سالف الذكر**، ص 24.

(70) يحصر "بيكون" العلوم فى ثلاثة تأتى بحسب قوانا المدركة: التاريخ وهو علم الذاكرة، والشعر وهو علم المخيلة، والفلسفة وموضوعها العقل. وهذه العلوم الثلاثة ليست - فى نهاية الأمر - سوى ثلاث مراحل متتالية يجتازها العقل فى تكوين العلوم. فالتاريخ

هو تجميع الوثائق وما فيها من مواد، والشعر هو أول استعمال وتنظيم لها، إنه تنظيم خيالى وقف عنده القدماء؛ وأخيراً الفلسفة هى التركيب والبناء العقلى الصلب.

انظر: حبيب الشارونى، **فلسفة فرنسيس بيكون**، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، 1981، ص 38.

(71) انظر: كولنجوود، **فكرة التاريخ**، ص 122.

(72) انظر: إمام عبدالفتاح، **توماس هوبز**: فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1985، ص 53.

أيضاً: عطيات أبو السعود، **فلسفة التاريخ عند جامبا تيستا فيكو**، ص 25.

(73) يُعرف القرن الثامن عشر بأنه "عصر التنوير" Enlightenment أى سيادة فلسفة عقلية تجريبية ترفض الميتافيزيقا والدين وتهتم بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى والجغرافيا والطب، فلسفة تؤمن بالتغير وتسعى إلى التجديد فى كل شيء، تحدوها ثقة مطلقة فى العقل ويدور التفكير فيها حول الإنسان، ولهذا كان الاهتمام بالتاريخ - فى هذا القرن - مظهراً من مظاهر الاهتمام بالإنسان.

انظر: أحمد محمود صبحى، **فى فلسفة التاريخ**، ص 82.

(74) عطيات أبو السعود، **المرجع سالف الذكر**، ص 74.

(75) مونتسكيو، **روح الشرائع**، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، مقدمة المؤلف.

انظر كذلك: لوى ألتوسير، **مونتسكيو**: السياسة والتاريخ، ترجمة نادر ذكرى، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، دار الفارابى، بيروت - لبنان، 2006، ص 9.

(76) أرنست كاسيرر، **فى المعرفة التاريخية**، ترجمة أحمد حمدى محمود، مراجعة على أدهم، دار النهضة العربية، ص 19.

* * *